

الباب الحادي والخمسون: في ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى: ﴿المالُ والبنونُ زينَةُ الحياةِ الدُّنيا﴾^(١) وقيل: الفقر رأس كل بلاء، وداعية إلى مقت الناس وهو ذلك مسلبة للمروءة لمذهبة للحياء، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بدأً من ترك الحياء، ومن فقد حياءه فقد وءته، ومن فقد مروءته مقت، ومن مقت ازدري به، ومن صار كذلك كان كلامه عليه لا له. وقال رسول الله ﷺ: نك إن تذر^(٢) ورثك أغنياء خير من أن تذرهم عائلة يتكفون الناس». وفي الحديث: «لا خيرَ فيمن لا يحب المال صل به رحمه، ويؤديه به أمانته، ويستغني به عن خلق ربه». وقال علي كرم الله تعالى وجهه: الفقر الموت الأكبر، قد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر. وقيل من حفظ دنياه حفظ الأكرمين: دينه وعرضه. وقال شاعر:

لا تَلْمَنِي إِذَا وَقَيْتِ الْأَوَاقِي^(٣) بِالْأَوَاقِي لِمَاءِ وَجْهِي وَاقِي

وقال لقمان لابنه: يا بني أكلت الحنظل وذقت الصبر فلم أر شيئاً أمر من الفقر فإن افتقرت فلا تحدّث به الناس بلا يتقصوك، ولكن أسأل الله تعالى من فضله، فمن ذا الذي سأل الله فلم يعطه أو دعاه فلم يجبه، أو تضرّع إليه فلم كشف ما به. وكان العباس رضي الله عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس وهو عندهم أعذب من ماء، وأرفع من السماء، وأحلى من الشهد، وأزكى من الورد، خطؤه صواب، وسيئاته حسنات، وقوله مقبول، يرفع جلسه ولا يملّ حديثه. والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم، لا يسأل عنه إن غاب، إن حضر ازدروه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته طع الصلاة. وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسي فلم أجد لها أروح من ترك ما لا يعينها، وتوحشت في البرية فلم أر حشة أقر من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قريناً أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى ل ما يذل القوي ويكسره فلم أر شيئاً أذل له ولا أكسر من الفاقة. قال الشاعر:

وكلُّ مقلِّ حينَ يغدو لحاجةٍ إلى كلِّ ما يلقي من الناس مذنبُ
وكانتْ بنو عمي يقولونَ مرحباً فلما رأوني معدّماً مات مرحبُ

وقال آخر:

المالُ يرفعُ سقفاً لا عمادَ له والفقر يهدمُ بيتَ العزِّ والشرفِ

وقال آخر:

(١) سورة: الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) تذر: ترك.

(٣) الأواقي: حمتك الحاميات.

وعيشُ الفتى بالفقر ليس يطيبُ
تحمُّقُه الأَقوام وهو ليبُّ^(١)
يَيْتٌ وهو مغلوبُ الفؤاد سلبُ
إذا قال كلُّ الناس أنت مصيبُ

وقد يسوّدُ غيرَ السيّد المالُ

سيئاً وإن الفقرَ بالمرء قد يُزري
ولا وَضَعُ النفسِ النفيسةَ كالفقرِ

وهانَ على الأذى فكيفَ الأباعدُ

والناسُ تغلقُ دونَهُ أبوابَها
ويرى العداوةَ لا يرى أسبابَها
خضعتُ لذيهِ وحرّكتُ أذنبَها
نَبَحْتُ عليه وكشّرتُ أنيابَها

مثلَ اصفرارِ الشمسِ عند المغيبِ
إذا بليَ بالفقرِ إلا غريبُ

تكسُو الرجالَ مهابةً وجمالاً
وهي السلاحُ لمن أراد قتالاً

فكلما انقلبتُ يوماً به انقلبوا
يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

وقال بعض الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كذاب:

وقال الكنانى:

جروحُ الليالى ما لهنَّ طيبُ
وحسبُك أن المرءَ في حالِ فقرِهِ
ومن يفتنرُ بالحادثاتِ وصرَفها
وما ضرّني أن قالَ أخطأتَ جاهلُ

وقال آخر:

الفقرُ يُزري^(٢) بأقوامٍ ذوي حسبٍ

وقال آخر:

لعمركُ إن المالَ قد يجعلُ الفتى
وما رَفَعُ النفسِ الدنيئةَ كالغنى

وقال آخر:

إذا قلَّ مالُ المرءِ لانتَ قناتُهُ

وقال ابن الأَحنف:

يمشي الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضدهُ
وتراه مغوضاً وليسَ بمذنبِ
حتى الكلابُ إذا رأَتْ ذا ثروةَ
وإذا رأَتْ يوماً فقيراً عابراً

وقال آخر:

فقرُ الفتى يُذهِبُ أنوارَه
والله ما الإنسانُ في قومِهِ

وقال آخر:

إن الدراهم في المواطنِ كلِّها
فهي اللسانُ لمن أراد فصاحةَ

وقال آخر:

ما الناسُ إلا مَعَ الدنيا وصاحبِها
يعظّمونَ أخوا الدنيا فإنَّ وثبتُ

(١) ليب: يظنونه أحمق وهو ليب.

(٢) يزري: يشين.

أصبحت الدنيا لنا عبرةً فالحمدُ لله على ذلكا
 قد أجمعَ الناسَ على ذمِّها وما أرى منهم لها تاركا
 وقال الزمخشري:

وإذا رأيتَ صعوبةً في مطلبٍ فاحمِلْ صعوبتَهُ على الدينارِ
 وابعثه فيما تشتهيهِ فإنَّهُ حَجَرٌ يَلِينُ قوَّةَ الأحجارِ

قال الثوري رحمه الله تعالى: لئن اخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إليّ من أن احتاج إلى لثيم. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

احفظْ عُرىَ مالِكَ تحفظْ به ولا تُفترطْ فيه تَبَقَّ ذليلُ
 وإن يقولوا باخلٌ بالعطا فالبخلُ خيرٌ من سؤالِ البخیلِ
 واحفظْ على نفسك من زلَّةٍ يُرى عزيزِ القومِ فيها ذليلُ

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحتز ويحتفظ عليه من المطمعين والمبرطحين^(١) والمحترفين الموهمين والتمتمسين^(٢).

فأما المطمعون؛ فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشرى والإكرام والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضاوا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يذكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول إني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرب إليك ونصحك وخدمتك وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي على مال، بل يكون مالك تحت يدك، أو تحت يد أحد من جهتك، ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على نسمين، إن ائتمنه هو جعل المال بيده، أعطاه السير منه على صفة أنه من الربح وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة لطويلة الشيء اليسير من ماله ثم يحتجّ عليه ببعض الآفات ويدعي الخسارة، فإن لزمه صاحب المال، قابحه وبرطل من جملة المال صاحب جاه فيدفعه ويقول هذا راباني^(٣)، فإن روعي صاحب المال وفق بينهما، على أن يكتب عليه بقية المال وثيقة فلا يستوفي ما فيها إلا في الآخرة، وإن هو لم يأت منه وعول أن يكون القبض بيده والمتاع مخزوناً لديه راطاً^(٤) عليه البائعين والمشتريين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أو همه أن فاتيح الأرزاق بيده، وإن كسد المشتري، أو رخص أحوال الأمر على الأقدار وقال ليس لي علم بالغيب.

ومن أشد المطمعين، المعترضون لصنعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير عدنهما، فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم فإن كذبهم ظاهر وذلك أنهم يوهمون

(١) المبرطحين: سيأتي تفصيل شرحهما وهما من أصناف المحتالين في حيازة المال.

(٢) التتمسين: سيأتي تفصيل شرحهما وهما من أصناف المحتالين في حيازة المال.

(٣) راباني: منسوب إلى الربا.

(٤) راطاً: شاركتهم العزم.

الغير أنهم ينيلونهم خيراً ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة، وهذا يستحيل ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك عدم الإمكان وتعذر المكان، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنه عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة، فيقنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية، وسيله بعد ذلك إن كان معروفاً قال فسد عليّ العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي ينفق عليه هل لك في المعاودة، فإن حملة الطمع ووافقه كان هذا له أتمّ غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأيّ سبب كان، وإن كان منكوراً غافلاً صاحب المكان وخارج هارباً.

ومن المظمعين، قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون: إنا نعرف علم كثر فيه من الإمارات كيت وكيت، ثم يوقفونهم على ورقة متصنعة ويقولون نريد أن تأخذ لنا عدة وتنقز علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك ويوطن نفسه على أن المادة تكون قريبة فيعملون يوماً أو يومين، فيظهر لهم أكثر الإمارات فيزداد طمعاً ويعتقد الصحة، ثم يستدرجونه إلى أن ينفق عليهم ما شاء الله تعالى ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء، وإن كانوا منكورين ورجبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا فهذا أمر المظمعين.

وأما المبرطحون؛ فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً^(١)، وذلك أنهم إذا نذب صاحب المال أحداً منهم لشراء حاجة سارع فيها، واحتاط في جودتها، وتوفير كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده، سرّاً، حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه وكذلك إن نذبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقي مقاليد أمره إليه فيستعطفه ويفوز به ثم يغير الحال الأول في الباطن فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون؛ فهم الذين يتعرّضون لذوي الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم مباسطة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس، ويستعملون كثيراً من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يربح الأرباح العظيمة فيما يعانیه، ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكتسب في كل سنة الجمل الكثير من المال، وأنه لا يبالي إذا أنفق، أو أكل، أو شرب، فتشره^(٢) نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعبة: يا فلان، تريد الدنيا كلها لنفسك لم لا تشاركنا في متاجرك هذه، وأرباحك، فيقول له: أنت جبان يعزّ عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئاً، واحتجت إلى أن تطعمه وإلا مات، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط لهذا، كنت فعلت معك خيراً كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه، والعمل في المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه فيكون حاله كحال المظمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتتمسون؛ فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك، ومجانبة الحرام، ومواظبة الصلاة والصيام لكي

(١) غرراً: انخداعاً.

(٢) فتشره: تصاب بالطمع.

بشهر ذكرهم عند الخاص العام، ثم يلقون ذوي الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المقال، ويمشون إلى أبواب ملوك على صفة التهاني بالأعياد، وربما يأتي معه بأحد من الأولاد ويظهرون التزاهة والغني، ويجعلون الدين سلماً لى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال، وتقوض إليهم الوصايا، ويجلهم^(١) العوام، وتقبل شهادتهم لحكام، وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال وهؤلاء أشتر من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع ندعو إلى الاحتراز منهم وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار^(٢) بهم. قال الشاعر:

صَلَّى وَصَامَ لِأَمْرٍ كَانَ أَمَلَهُ حَتَّى حَوَاةُ فَمَا صَلَّى وَلَا صَامَا

وقيل: لا فقير أفقر من غني يأمن الفقير: قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَقْرَ يُرْجَى لَهُ الْغِنَى وَأَنَّ الْغِنَى يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْفَقْرِ

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني عليك بطلب العلم وجمع المال فإن الناس طائفتان، خاصة عامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال. وقال بعض الحكماء إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به وثقاً، أساء به الظن من كان ظنه به حسناً، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدا من ترك الحياء ومن ذهب حياؤه ذهب هياؤه، وما من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعاً سمي أهورج، وإن كان مؤثراً سمي مفسداً، إن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان لسنأ سمي مهذاراً، وإن كان صموتاً سمي عيباً. قال ابن كثير:

الناس أتباع مَنْ دامت له نعمُ والويلُ للمرءِ إن زلَّتْ به القدمُ^(٣)
المالُ زينٌ ومَنْ قَلَّتْ دراھمُهُ حَيٌّ كَمَنْ مَاتَ إِلَّا أَنَّهُ صَنَمٌ
لما رأيتُ أحلَّائي وخالصتي والكلُّ مُسْتَتِرٌ عَنِّي ومحتشمٌ
أبدوا جفاءً وإعراضاً فقلتُ لهم أذنبْتُ ذنباً فقالوا ذنبُك العدمُ^(٤)

وكان ابن مقلة وزيراً لبعض الخلفاء فزور عنه يهودي كتاباً إلى بلاد الكفار وضمنه أموراً من أسرار الدولة ثم حيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي فأعطته رجاً بخرطه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الذي كان في الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل من في الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضح القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية قتلها شر قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعا سنية وندم على فعله واعتذر إليه فكتب ابن مقلة على باب اراه يقول:

تَحَالَفَ النَّاسُ وَالزَّمَانُ فحيثُ كان الزمانُ كانوا

(١) يجلهم: يحترمهم.

(٢) الاغترار: الانخداع.

(٣) القدم: عثرت به.

(٤) العدم: الفاقة.

عاداني الدهرُ نصفَ يومٍ فانكشفَ الناسُ لي وبأنوا
يا أيها المُغرِضُونَ عني عُودُوا فقد عادَ لي الزمانُ

ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى قال بعضهم:

إنما قوّة الظهورِ النقوْدُ وبها يكملُ الفتى ويسوّدُ
كم كريمٍ أزرى به الدهرُ يوماً ولئيمٍ تسعى إليه الوفودُ

والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها، اللعب بالدينار، وشرب الأدوية والمساليق^(١)، التي يغلى فيها الذهب
قال الشاعر:

إحرص على الدرهم والعين تسلم من العيلة والذئبين
فقوة العين بإنسانها^(٢) وقوة الإنسان بالعينين

واعلم أن القلب عمود البدن، فإذا قوي القلب قوي سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال، وبالضد إذ
ضعف من الفقر ضعف له البدن.

حكى أن ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه والشاب يعجز عن ذلك فعجب منه فاستحضر
فحادثة في ذلك فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه. وقال لقمان لابنه: يا بني شيان إذا أنت حفظتهما لا تبالي به
صنعت بعدهما، دينك لمعادك، ودرهمك لمعاشك. والكلام في هذا المعنى كثير، وقد اقتصرنا منه على النز
اليسير، وقد كان في الناس من يتظاهر بالغنى ويراه مروءة وفخراً، فمن ذلك ما حكى عن أحمد بن طولون أنه دخل
يوماً بعض بساتيه فرأى النرجس وقد تفتح زهره فاستحسنه فدعا بغدائه فتغذى ثم دعا بشرابه فشرب، فلما انتشى قال
عليّ بألف مثقال من المسك فشره على أوراق النرجس.

ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف؛ حكى الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالعجائب والطرف أن أبا الوليد
ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ، لما فتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة، وجد في
الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب، مما كان يهدى للبيت قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف
وتسعون ألف دينار. وباع زهرة التميمي يوم القادسية منقطة كان قتل صاحبها بشمانين ألف دينار، ولبس سلبه وقيمة
خمسائة ألف وخمسون ألفاً. وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمته
ألف ألف دينار ومائتي ألف. ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إبريق ذهب مرصعاً بالجواهر فلم يدر أحد
قيمه. فقال رجل من الفرس أنا أخذه بعشرة آلاف دينار ولم يعرف قيمته، فذهب به إلى سعد بن أبي وقاص فأعطا
إياه. وقال لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار فباعه سعد بمائة ألف دينار.

ولما أتت التركُ إلى عبد الله بن زياد ببخارى في سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمها
الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فرديته، ونسيت الأخرى فأصابها المسلمون فقومت بمائتي ألف

(١) المساليق: مفردها ما يسلق ليشرب.

(٢) بإنسانها: بؤبؤ العين.

دينار. ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى في سنة تسع وثمانين وجد فيها قدور ذهب ينزل إليها بسلاطيم. ودفع مصعب بن الزبير حين أحسن بالقتل إلى زياد مولاه فصاً من ياقوت أحمر، وقال له انج به وكان قد قوّم ذلك الفص بألف ألف درهم، فأخذه زياد ورضه بين حجرين وقال والله لا يتفجع به أحد بعد مصعب. وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان في ولايته عثر على كنز فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب، مرصعة بالدرّ والجواهر، والياقوت الأحمر والأصفر والزربرد فحملها إلى مصعب بن الزبير فخرج من قوّمها فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار، فقال إلى من أدفعها فقيل إلى نساءك وأهلك. فقال لا بل إلى رجل قدّم عندنا يدا، وأولانا جميلاً، ادع لي عبد الله بن أبي دريد فدفعها إليه. ولما صار موجود عماد الدولة في قبضة أمير الجيوش وجد في جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشرة مثقالاً، فأنفذها أمير الجيوش إلى المستنصر فقوّم بتسعين ألف دينار.

ووجد في بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعدّ له من آلة الشرب يوم قتل سبعمائة صينية من ذهب وفضة، ووجد له مائة ألف مثقال عنبر. وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي، وعشرة آلاف تكة حرير وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف دينار. ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية، ووفاة هشام سبع سنين. ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش في شهر رمضان سنة خمس وعشرة وخمسماية خلف بعده مائة ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين أردبا وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج، ودواة من الذهب قوّم ما عليها من الجواهر والياقوت بمائتي ألف دينار، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب، قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونا، وخلف كعبة عنبر يجعل عليها ثيابه، إذ نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجوهر الفائق الذي لا يوجد مثله، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه، وخلف من الزبادي الصيني والبلور المحكم، وسق^(١) مائة جمل، وخلف عشرة آلاف ملعقة فضة، وثلاثة آلاف ملعقة ذهب، وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهباً، كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام^(٢) ذهباً بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن الأرداب، في كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلف من الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال وحلي النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وخلف ألف حسكة^(٣) ذهباً وألفي حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة ذهباً، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهباً وألف صورة فضة، منقوشة عمل المغرب، وثلاثمائة ثور ذهباً، وأربعة آلاف ثور فضة، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لبته في كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلف من الحواصل المملوءة من الحبوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبلًا كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً له، فلما رأوه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه فضرط فضحكوا عليه، فكسروه استهزاء وسخرية ولم يدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج^(٤)، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره.

(١) وسق: حمولة.

(٢) جام: وعاء زجاجي.

(٣) حسكة: من الأسلحة.

(٤) القولنج: أحد الأمراض الباطنية.

وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفذت ذخائرهم، وفنيت أموالهم فسبحان من يدوم ملكه ويقاؤه. قال بعضهم:

هَبِ الدنِيا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْواً^(١) أليسَ مصيرُ ذلكَ للزوالِ

فضمنت أنا هذا البيت وقلت:

أيا مَنْ عاشَ في الدنيا طويلاً وأتعبَ نفسَهُ فيما سيفنى هَبِ الدنِيا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْواً

وأفنى العمرَ في قيلٍ وقيلَ وجَمَعِ مِنْ حرامٍ أو حلالٍ أليسَ مصيرُ ذلكَ للزوالِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عفواً: دون جهد.